

الجمال في المشروع الحضاري

في فكر مالك بن نبي

الأستاذ : خالد عبا. الوهاب
(جامعة باتنة)

مدخل

يعد مالك بن نبي من أكثر المفكرين في العالم الإسلامي المعاصر اهتماما بقضايا الفكر والثقافة والحضارة ، ولذلك إعتبر الإصلاح الفكري و الثقافي حجري الزاوية في عملية التجديد الحضاري للأمة الإسلامية، -نيث خصص لهاتين القضيتين الكثير من مؤلفاته.

ولذلك إعتد في فلسفته الإجتماعية على منهج واقعي يتخذ من المجتمع منطلقا علميا وتاريخيا وإجتماعيا ، لبحوثه وتأملاته. فهو يتخذ من تجاربه الشخصية شواهد موضوعية لهذه التأملات ، حيث يأخذ التجارب على سبيل الإستدلال ليقارنها بحوادث التاريخ ، خاصة التاريخ الإسلامي ، «ولذا ترتبط فلسفة مالك بن نبي بحركة المجتمع ، وسيره في التاريخ ، موضوعها الإنسان بصورته الفردية و الإجتماعية من جهة وفي صورتيه النفسية و التاريخية من جهة ثانية»⁽¹⁾

ولما كان الجمال واحد من مقومات الحضارة ، فإن مالك بن نبي ربطه بفلسفته الإجتماعية ، وأدرجه في مشروعه الحضاري ، و جعله أداة فاعلة في التغيير و الإصلاح و التوجيه الثقافي . وهذا ما جعله ينتقل من مرحلة التنظير لفلسفة الجمال إلى مرحلة بناء فكر جمالي يستلهم أفكاره وقيمه الجمالية من الواقع الإجتماعي ، بإعتبار الجمال والفن عناصر فاعلة لصياغة الثقافة في قالب تربوي تجسد الفعالية للإنسان المسلم في المجتمع وفي ذلك يقول : «ليس المطلوب أن نعلم المسلم عقيدة هو يمثلها ، وإنما المهم أن نرد إلى هذه العقيدة فاعليتها ، وقوتها الإيجابية»⁽²⁾ و لذا سنحاول في هذه الدراسة أن نبين الفاعلية للفكرة الدينية في المشروع الحضاري لمالك بن نبي من خلال نظريته للجمال كمفهوم وموقعه من المشروع الحضاري.

ومن هذا المنطلق فإنه يعتبر أن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارية ما لم يرتفع إلى مستوى الأحداث الإنسانية ، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها. كما يرى أن مشكلات العالم الإسلامي مهما اختلفت أو تنوعت فإنها تصب في إطار واحد ، لكونها مشكلة حضارة يعد المسلم خارج إطارها ، ومشكلة ثقافة لم يكتمل إطارها في حياته اليومية. وهذا ما مكن مالك بن نبي من دراسة الأسباب الفعلية والحقيقية للتخلف الذي يُعاني منه المجتمع العربي والإسلامي، والعوامل الخارجية الموضوعية والداخلية الذاتية التي تتفاعل لإنتاج هذا التخلف، وتأسيس بنيته في المجتمعات العربية و الإسلامية المعاصرة.



1- مفهوم الجمال

إن الاهتمام الذي أولاه مالك بن نبي، لم يكن يقصد به ذلك الطرح الفلسفي (الميتافيزيقي) الذي كان محور اهتمام الفلاسفة المسلمين أمثال الفارابي والغزالي، لكنه حاول ضبط مفهومه من ناحية اجتماعية من خلال جعله واحدا من المركبات الاجتماعية للثقافة، حيث يقول في هذا الصدد: «وفي هذا المركب الاجتماعي للثقافة ينحصر برنامجها التربوي، وهو يتألف من أربعة عناصر، يتخذ منها الشعب دستوراً لحياته المثقفة: (منها) عنصر الجمال لتكوين الذوق العام»⁽³⁾

لكن من أين يستمد الفرد الذوق الجمالي؟ هل هو مفهوم أو معنى مجرد؟ أم أنه معطى اجتماعي تحاكيه الذات؟ أم أن الذات هي التي تضيف على الواقع صور الجمال؟

يرى مالك بن نبي أن الجمال كثقافة ووعي اجتماعي هو عبارة عن شعور عند الفرد، يحدده ذلك الخيال الجميل، حيث تنطبع صور الجمال في ذات الفرد، وهذا ما يؤكد بقوله: «لا يمكن لصورة قبيحة أن توحى بالخيال الجميل، فإن لمنظرها القبيح في النفس خيالاً أقبح»⁽⁴⁾، وبالتالي هذا ما يؤكد مصدر الجمال والقبح، والمتمثل في المجتمع، حيث يؤثر هذا الأخير في نفوس أفرادها، ويخلق صور الجمال في مخيلة الفرد، ليعتمدها كمرجع للحكم على صور الواقع، حيث يقول: «والمجتمع الذي ينطوي على صور قبيحة، لا بد أن يظهر أثر هذه الصور في أفكاره وأعماله ومساعيه»⁽⁵⁾، ولعل هذا ما يوضح كذلك محاولة مالك بن نبي للربط بين الجمال والأخلاق، وتبيان التداخل بين معايير الجمال والأخلاق، ولأجل هذا يعتبر الذوق الجمالي هو الذي يركب صورة المبدأ الأخلاقي.

كما يرى أن الجمال من أهم العناصر الحيوية في الثقافة، لكونه عاملاً من عوامل الفعالية في الفرد والمجتمع، وبذلك فالذوق الجمالي هو الذي

يوجد المناخ الدافع إلى العمل، وغرس القيم والعادات الإيجابية في جميع المجالات، حيث يقول: «فالذوق الجميل الذي ينطبع فيه فكر الفرد، يجد الإنسان في نفسه نزوعاً إلى الإحسان في العمل، وتوخياً للكرام من العادات»⁽⁶⁾. ولقد لخص هذا التفاعل بين الأخلاق والجمال في المعادلة الآتية:

مبدأ أخلاقي + ذوق جمالي = إتجاه حضاري

هذه المعادلة التي تحدد لنا وجهة الحضارة من خلال التوجيه الثقافي، هذا الأخير القائم على أساسين هما التوجيه الأخلاقي، والتوجيه الجمالي. ولعل هذا ما يوضح مدى تطور الفكر الجمالي في الفلسفة الإسلامية في هذا النموذج المعاصر الذي يجسده مالك بن نبي، حيث تتجاوز فكرة الجمال كمفهوم مجرد، في هذا الطرح النقدي أيضاً رفض لفكرة الجمال لذاته في الفلسفات القديمة كما رفضها التصور الإسلامي (القرآن والسنة)، وكذا رفض لفكرة الفن للفن في الفلسفة المعاصرة.

وبالتالي إعتباره سلوكاً يعكس الطابع الاجتماعي للفرد، ودرجة تحضره، لكونه الإطار الذي تتشكل فيه الحضارة. والدليل على ذلك ربطه للجمال بالثقافة، حيث يعتبرها «نظرية في السلوك أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة»⁽⁷⁾.

وهذا ما يبين مدى ارتباط الفكر الجمالي عند مالك بن نبي بالواقع من خلال الإهتمام بالفرد فكراً وسلوكاً، ثم إنعكاسات ذلك على الواقع الاجتماعي، لأنه يرى من خلال صور الجمال يستمد الفرد ذوقه الجمالي، وأفكاره الجمالية، وهذه الأخيرة تولد سلوكات الفرد في الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه، حيث تتجسد مظاهر الجمال ومستوياته، وهذا ما يعكس أهمية الجمال الاجتماعية، وفي هذا الشأن يقول «ولا شك أن للجمال أهمية إجتماعية هامة، إذا ما

ويضرب لنا مثالا من الواقع شبيه في معناه بالمثل الذي إستدل به الرسول ﷺ ألا وهو (البت الحسناء في المنبت السوء) لتبيان الجمال الخادع الذي ينفصل فيه الشكل عن المضمون، ويتمثل هذا المثل في: «ذلك الطفل الذي يلبس الأسماك البالية والثياب القذرة»⁽¹¹⁾، حيث تجتمع في هذا المشهد صورة القبح والمهانة، وهذا يتنافى وقيم الجمال عند مالك بن نبي، حيث يظهر ذلك الترابط بين الشكل والمضمون في الصورة الجمالية من خلال ارتباط المبدأ الأخلاقي بالمبدأ الجمالي، وهذا ما أقره في معادلته المذكورة آنفا.

ويعلق على هذا المثال موضحا التناقض بين المبدأين بقوله: «ولنستخدم أبسط معنى للجمال، ولننظر من قريب إلى أسماك هذا الطفل، فهي تحمل معنى القبح، وتحمل أكثر من ذلك جرائم تقتله ماديا وأديا، فليست هذه الأسماك جرابا للوسخ فقط، ولكنها سجننا لنفس الطفل أيضا»⁽¹²⁾، ولعل ما يقصده كذلك من هذا المثال أن صورة الجمال هي التي تنتج الأفكار، وهذه الأخيرة تنتج الأعمال التي يمارسها الفرد في المجتمع، والتي من خلالها تقاس درجة تحضره أو تخلفه، فكذلك صورة القبح المرتبطة بالإهانة التي ذكرها في مثال الطفل، الغاية منها استعراض نموذج للشعوب المتخلفة في عصره خاصة منها المجتمعات الإسلامية، ومنها على الأخص الجزائر آنذاك، ثم اقتراح كيفية التغيير والإصلاح على ضوء ربط الجمال بالأخلاق وعلى أساس ثنائية الشكل والمضمون، لأن الصورة القبيحة قد تعدم القيمة الخلقية للجمال، ويوضح هذا قوله: «لقد أراد الطفل من الوجهة الخلقية ستر عورته، لكن مرقعاته قتلت كرامته»⁽¹³⁾.

لكن إذا غيرنا في شكل هذه الصورة، بحيث تنسجم مع المضمون المقصود في السلوك، فإنه يصبح الفقر مرادفا للكرامة والعفة وعزة النفس وحريتها ولأجل ذلك يقول مالك بن نبي: «فبهذا

عددناه المنبع الذي تنبع منه الأفكار، وتصدر عنه بواسطة تلك الأفكار أعمال الفرد في المجتمع»⁽²⁾. ويؤكد مالك بن نبي هذه الأهمية الاجتماعية للجمال، من خلال تأثيره في الفرد والمجتمع حسب الصورة الجمالية التي يعكسها موضوع الجمال بمفهومها السلبي (القبح) أو الإيجابي (الجمال)، حيث يقول: «فالشئ الواحد قد يختلف تأثيره في المجتمع باختلاف صورته التي تنطق بالجمال، أو تنضح بالقبح. ونحن نرى أثر تلك الصورة في تفكير الإنسان وفي عمله وفي السياسة التي يرسمها لنفسه»⁽⁹⁾.

وما يمكن استنتاجه من هذا التصور النقدي للجمال عند مالك بن نبي هو محاولته للربط بين الشكل والمضمون في مفهوم الجمال، هذه الثنائية بين الشكل والمضمون في الجمال تعكس مدى تشبع مالك بن نبي بالثقافة الإسلامية، واعتبارها واحدة من أصول فلسفته، وهذا ما دعا إليه الإسلام من خلال القرآن والسنة إلى الربط بين الشكل والمضمون في تذوق الجمال وممارسته كالشعر مثلا الذي لا يتعارض شكله ومضمونه مع مبادئ وقيم العقيدة الإسلامية، حيث تعكس مدى تجاوز الاهتمام بالشكل فقط في تذوق الجمال.

وهنا محاولة منه لتشخيص ظاهرة التخلف عند المسلمين وانحطاطهم من منظور جمالي، وذلك ليلهم إلى الاهتمام بالجوانب الشكلية والصورية للحضارة، وهذا ما أفقدهم في نظره ذوق الجمال باعتباره واحد من مقومات الثقافة في تشكيل الحضارة وتوجيهها.

وفي هذا الطرح أيضا وصف لعلاج المشكلة على ضوء واحد من حلولها، إذ يقول: «أننا أصبحنا اليوم نفقد ذوق الجمال، ولو أنه كان موجودا في ثقافتنا، إذن لسخرناه لحل مشكلات جزئية، تكون في مجموعها جانبا من حياة الإنسان»⁽¹⁰⁾.

وسلوكات الأفراد في الوسط الاجتماعي، كما تعد عوامل توجيهها، حيث ينعكس ذلك في اتجاه حضارة المجتمع، لكون الجمال الإطار الذي تتشكل فيه الحضارة، والصورة التي تعبر عن درجة تحضر ذلك المجتمع من خلال أعمال أفرادها. وبالتالي هذا ما جعله ينزل بالجمال إلى الواقع بدعوى رفضه أن يكون نظرية في المعرفة أو مجرد ذوق، بل هو نظرية في السلوك تهدف إلى إرساء الفاعلية في الفرد والمجتمع من أجل النهضة والإقلاع الحضاري، وهذا ما جسده مشروعه الحضاري. لكن ما موقع الجمال في هذا المشروع؟ وبمعنى آخر ما علاقة الجمال بالحضارة؟

2- الجمال في المشروع الحضاري :

لقد احتلت الثقافة حيزا كبيرا من الانتاج الفكري عند مالك بن نبي حيث أدرج ذلك تحت إطار عام اصطلاح عليه (مشكلات الحضارة) ، والتي اشتقتها من المعادلة الحضارية المصاغة في الشكل الرياضي التالي :

$$\text{حضارة} = \text{انسان} + \text{تراب} + \text{وقت}$$

من هذه المعادلة نستنتج المشكلات الثلاثة للحضارة ، والمتمثلة في مشكلة الإنسان ، ومشكلة التراب، ومشكلة الوقت، ثم يركز على العامل الحيوي في تنشيط هذه العناصر الثلاثة، حيث يشخص ذلك العامل بالفكرة الدينية، ويؤكد هذا بقوله: «إن هناك ما يطلق عليه (مركب الحضارة) أي العامل الذي يؤثر في مزج العناصر الثلاثة بعضها ببعض... هو الفكرة الدينية التي رافقت دائما تركيب الحضارة خلال التاريخ»⁽¹⁷⁾. لكن ما يهنا في هذه المعادلة الحضارية ، دور الإنسان في تفعيل المشروع الحضاري من زاويتي الأخلاق و الجمال على ضوء ارتباطهما بالثقافة ثم بالحضارة ،هذا لما بين

لا يضل كومة متحركة من الأوساخ، بل يصبح طفلا فقيرا يسعى لقوته، نجد فيه صورة للفقير والكرامة لا للقبح والمهانة»⁽¹⁴⁾، وهذا ما يؤكد تأثير الجمال في المجتمع في مختلف مقومات الحياة الاجتماعية، وبالتالي اعتبر مالك بن نبي الجمال هو الإطار الذي تتشكل فيه حضارة أي مجتمع، والتي يجسدها فكر وسلوك الفرد، ولذا يقول: «والإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمال، بل الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه أية حضارة»⁽¹⁵⁾.

والمقصود من هذا، أن الجمال هو المرأة التي تعكس شخصية الفرد والمجتمع، حيث يعكس الذوق الجمالي درجة الوعي والتحضر، ويظهر ذلك في سلوكيات الفرد في وسطه الاجتماعي، ولعل هذا هو الدافع الذي جعله يعتبر الجمال من أهم العناصر الحيوية في الثقافة، وشرطا من أهم شروط الفاعلية في الفرد والمجتمع لبناء حضارة تكون فعالة وذات تأثير على باقي الحضارات الأخرى كلما كانت عوامل بنائها وشروط تشييدها ذات فاعلية كذلك، وفي هذا الشأن يقول: «إن الجمال هو وجه الوطن في العالم، فلنحفظ وجهنا لكي نحفظ كرامتنا، ونفرض احترامنا على جيراننا الذين ندين لهم بالاحترام نفسه»⁽¹⁶⁾، والمقصود هنا يتمثل في عدم اعتبار الجمال غاية لذاته، أي أن أهميته لا تقف عند انعكاساته على الفرد فحسب، بل تتعداه إلى المجتمع، ولا تقف عند هذا الأخير كذلك، بل تتجاوزها إلى التأثير على باقي الحضارات من أجل فرض الوجود، والمحافظة على كرامة الفرد والمجتمع كأمة تمثل حضارة.

وما يمكن استخلاصه من هذا التصور النقدي للجمال عند مالك بن نبي، أنه محاولة لاعطاء الجمال أبعاده الحقيقية والتمثلة في البعد الاجتماعي والأخلاقي والحضاري، لكونها تشكل مكونات الثقافة التي تظهر في أفكار

الاستعدادات المتشابهة والاتجاهات الموحدة والأذواق المناسبة»⁽¹⁹⁾.

كما يعرفها في موضع آخر بقوله: «إن الثقافة هي الجو المشتمل على أنباء ظاهرة، مثل الأوزان والألحان والحركات، وعلى أشياء باطنة كالأذواق والعادات والتقاليد، بمعنى أنها الجو العام الذي يطبع أسلوب الحياة في مجتمع معين و سلوك الفرد فيه بطابع خاص»⁽²⁰⁾.

وما يهمننا في تعريف مالك بن نبي للثقافة الجانب التربوي على الأخص لأنه يمكننا من ادراك علاقة الجمال بالحضارة، أي على ضوء العلاقة بين الثقافة والحضارة، يمكن معرفة الدور الوظيفي للذوق الجمالي وباقي المركبات الاجتماعية الأخرى، حيث ينعكس الجانب التربوي للحضارة، ويؤكد ذلك بقوله: «وفي هذا المركب الاجتماعي للثقافة ينحصر برنامجها التربوي، و هو يتألف من عناصر أربعة، يتخذ منها الشعب دستوراً لحياته المثقفة:

- أ - عنصر الاخلاق لتكوين الصلات الاجتماعية .
- ب - عنصر الجمال لتكوين الذوق العام .
- ج - منطق عملي لتحديد أشكال النشاط العام .
- د - الفن التطبيقي الموائم لكل نوع من أنواع المجتمع»⁽²¹⁾.

لكن ما يهمننا في هذه العناصر الأربعة عنصر الجمال، بغرض معرفة دوره الوظيفي في بناء الحضارة و تحديد اتجاهها بتفاعله خاصة مع المبدأ الأخلاقي، لأن هذا الأخير يحتل مركزاً جوهرياً في مشروع مالك بن نبي الثقافي والحضاري، لكن ليس بمبعناه الفلسفي، بل بمبعناه الاجتماعي، فالعناصر المادية و غير المادية لا تصنع الثقافة، بل لابد من عنصر أخلاقي يربط بينهما و يزيد من تفاعلها، وبذلك فالثقافة لا يمكن أن تكون أسلوب الحياة في مجتمع معين إلا إذا اشتملت على عنصر ألا و هو المبدأ الأخلاقي الذي يجعل كل فرد مرتبطاً بهذا الأسلوب، وإذا ما وجد هذا

هذين الأخيرتين من علاقة لا تقبل الانفصام، لأن الثقافة في نظره هي جوهر الحضارة، كما أن هذه الأخيرة في حقيقتها هي مجموعة قيم مجسدة في الواقع و من ثم فهو لا يقدم لنا تعريفاً أكاديمياً للثقافة، بل يعرفها بناءً على صلتها الوظيفية بالحضارة .

ولما كان الجمال واحداً من مقومات الثقافة، فلا يمكن عزله عن الحضارة لأنه عاملاً أساسياً في المشروع الحضاري الذي رسمه مالك بن نبي لمعالجة مشكلة الثقافة في العالم الإسلامي، و كيفية النهضة بهذا الأخير من خلال تجاوز مشكلة التخلف للانتقال إلى مرحلة الحضارة ولعرفة موقع الجمال من المشروع الحضاري، لابد من العودة إلى مفهوم الثقافة من زاويته التاريخية، والتربوية لإدراك تراكيبها ومدى فعاليتها في تشكيل الحضارة وتوجيهها، ولذا فالثقافة من زاوية التاريخ هي مجموعة من الصفات الخلقية و القيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته، و تصبح لا شعورياً العلاقة التي تربط سلوكه بالحياة في الوسط الذي ولد فيه، وبالتالي فهي المحيط الذي تشكل فيه الفرد.

و في هذا الشأن يقول: «والثقافة لا يسوغ أن تعد علماً يتعلمه الإنسان بل هي محيط يحيط به، وإطار يتحرك داخله، يغذي الحضارة في أحشائه، فهي الوسط الذي تتكون فيه جميع خصائص المجتمع المتحضر، وتشكل فيه كل جزئية من جزئياته»⁽¹⁸⁾.

أما معناها من زاوية تربوية، فيعني ذلك التركيب العام لتراكيب جزئية أربعة هي الأخلاق والجمال، والمنطق العملي، والفن التطبيقي أو الصناعة وفي هذا المجال يقول: «فالثقافة هي ذلك الدم في جسم المجتمع، يغذي حضارته، و يحمل أفكار (النخبة) كما يحمل أفكار (العامة)، وكل من هذه الأفكار منسجم في سائل واحد من

بالتالي القوانين المحددة التي يخضع لها نشاط المجتمع والدستور الذي تقوم عليه حضارته⁽²⁵⁾.
و لعل ما يوضح اعتباره للأخلاق والجمال كدستور أو مجموعة من القوانين الاجتماعية تقوم عليها الحضارة ، هي تلك الصلة العضوية بينهما. والتي تنعكس أهميتها الاجتماعية من خلال تحديد خصوصيات الثقافة وإتجاه الحضارة ، ويؤكد ذلك بقوله: «إن هناك على الخصوص صلة بين المبدأ الأخلاقي و ذوق الجمال ، تكون في الواقع علاقة عضوية ذات أهمية اجتماعية كبيرة إذ أنها تحدد طابع الثقافة كله و إتجاه الحضارة»⁽²⁶⁾، هذا ما جعله يجسد هذه العلاقة أو النسبة في صورة معادلة رياضية :

«مبدأ أخلاقي + ذوق جمالي = إتجاه الحضارة»⁽²⁷⁾

في هذه الصيغة الرياضية لإتجاه الحضارة يرى مالك بن نبي «أن ذوق الجمال عامل أساسي في سلامة التوجيه الحضاري أو عدمه، وإذا كانت الأخلاق عاملاً مؤثراً في توجيه النمط الحضاري، إلا أن الأمر يختلف بالنسبة لذوق الجمال لأن الإتجاه الحضاري و نمط سلوك الانسان هي التي تترك بصماتها على النواحي الشكلية الجمالية في المجتمع»⁽²⁸⁾ لكن ما الذي يحدد صورة الحضارة وإتجاهها؟.

يرى مالك بن نبي أن صورة الحضارة وإتجاهها الذي يحدد خصائص ثقافة أي مجتمع، تتحدد حسب ترتيب المبدأين في المعادلة حيث يقول: «كذلك شأن الحضارة، تتغير ميزاتها وتتجه بوجه خاص طبقاً لعلاقة المبدأ الأخلاقي وذوق الجمال في المعادلة الحضارية، أي طبقاً لترتيب هذين العنصرين في المعادلة»⁽²⁹⁾ ويوضح ذلك بواسطة المقارنة بين نموذجين من المجتمع «نموذجاً يقوم فيه النشاط أساساً على الدوافع الجمالية، ونموذجاً يقوم فيه النشاط على الدوافع الأخلاقية أولاً»⁽³⁰⁾،

العنصر كضرورة منطقية اجتماعية ، فإن النتيجة تكون حسب قوله: «فإننا نكون بهذا قد وضعنا فصلاً مهماً من فصول الثقافة، وحققنا شرطاً أساسياً من شروطها و هو المبدأ الأخلاقي»⁽²²⁾.

وإذا كان المبدأ الأخلاقي يقرر الاتجاه العام للمجتمع بتحديد الدوافع و الغايات ، فإن ذوق الجمال هو الذي يصوغ صورته، ولذا يعد اهتمام مالك بن نبي بالأخلاق نابع من البعد الاجتماعي و التربوي للثقافة ، ذلك ما جعله يعتبرها «الأساس الذي تركز عليه ثقافة المجتمع ، و لا بد في المجتمع المتقدم من ذوق جمالي، إذ أن الإطار الحضاري بكل محتوياته يتصل بالذوق الجمالي، بل أن الجمال هو الذي تتكون فيه أية حضارة»⁽²³⁾.

ولأجل ذلك يعتبر المبدأ الجمالي من أهم العناصر الحيوية في الثقافة لكونه يجسد الفعلية في الفرد والمجتمع ، كما يهيئ المناخ المحفز للعمل و غرس العادات الإيجابية في مختلف المجالات، ويؤكد ذلك بقوله: «فالذوق الجميل الذي ينطبع فيه فكر الفرد، يجد الإنسان في نفسه نزوعاً إلى الإحسان في العمل و توخياً للكرم من العادات»⁽²⁴⁾ لكن ما هو وجه الارتباط الوظيفي بين الحضارة و العلاقة القائمة بين الأخلاق والجمال؟.

إن الإجابة عن هذا السؤال تكمن في نظر مالك بن نبي في الارتباط الوثيق بين الثقافة كسلوك و محيط يعيش فيه الفرد ، و مبدأي الأخلاق والجمال كعنصرين فاعلين في الفرد والمجتمع، حيث كلما زادت درجة تطور هذه الثقافة، تحول هذين المبدأين من مجرد مركبين للثقافة إلى قوانين محددة لقيم المجتمع و نشاطه، ذلك ما ينتج نظاماً اجتماعياً تقوم عليه حضارة المجتمع، وهذا ما يوضحه قوله: «و طبيعي أنه بقدر ما تكون هذه الثقافة متطورة فإن البذور الأخلاقية و الجمالية تكون أقرب إلى الكمال حتى تصبح

ويلاحظ نتائج هذا المنهج الخاطئ في نهضة العالم الاسلامي الذي عالج مشكلته بنظرة جزئية جعلته يحولها إلى العديد من المشكلات، ويعالج كل مشكلة منها بمعزل عن الأخرى، ومثال ذلك أنه حين نظر إلى المشكلة على أساس أنها مشكلة جهل، ومشكلة فقر، ومشكلة مرض، جاءت الحلول الجزئية لكل مشكلة على حدة، فالعلم في مقابل الجهل، و الغنى في مقابل الفقر، و الصحة في مقابل المرض، وهكذا دون إدراك للإطار العام للمشكلة، ووضع برنامج شامل لعلاجها يمكن من إعادة البناء وفق القوانين الاجتماعية التي تمثلها مركبات الحضارة وتماسكها عن طريق الدين.

خلاصة

وما يمكن إستخلاصه من نظرة مالك بن نبي للجمال كمفهوم أو كعنصر فعال في المشروع الحضاري، أنه بالرغم من تشبعه بالثقافة الإسلامية، وكذا إطلاعاه على أعمال فلاسفة الإسلام كالغزالي ومعاصريه للمدرسة الإصلاحية في الوطن العربي والإسلامي ومعايشته للحضارة الغربية، إلا أن ذلك لم يجعله سجين في كثير من أفكاره لهذا التراث الفكري.

بل تجاوزه في طرح كثير من القضايا بفكر إجتماعي نقدي مكنه من تجاوز الطرح الميتافيزيقي للأفكار الفلسفية خاصة منها الجمال لكونه في نظره سلوكا يمارس، وليس مجرد تجربة ذاتية أو حقيقة يمكن ربطه بالثقافة والحضارة، حيث أوضح أهمية الجمال الاجتماعية ودوره في تجسيد الفعالية للفرد والمجتمع، كما ربط الجمال بالأخلاق نظرا للعلاقة العضوية بينهما في بناء الحضارة أو إعادة بناءها وإحيائها.

يترتب عن هذا الاختلاف بين النموذجين من المجتمع في الميزات الحضارية وإتجاهها لكل منهما، ولأجل ذلك يرى أن الثقافة التي تعطي الأولوية للذوق الجمالي مآلها الانحطاط والتخلف، حيث يقول: «فري كيف أن ثقافة تمنح الأولوية لذوق الجمال، تغذي حضارة تنتهي إلى فضيحة حمراء»⁽³¹⁾.

أما الثقافة التي تعطي الأولوية للمبدأ الأخلاقي مآلها التحجر والجمود و يؤكد ذلك بقوله: «أن الثقافة التي تمنح الأولوية للمبدأ الأخلاقي، تكون حضارة مآلها التحجر والجمود»⁽³²⁾، ولعل ما يريد توضيحه في هذين النموذجين هو رفضه لفكرة الفن للفن حيث يقوم الجمال على الأخلاق وكذلك حين تقدم الأخلاق على الجمال، فإنه يرفض بذلك فكرة الفن الملتمزم. ولذا يرى أن هذا الاختلاف بين المجتمعات يعود إلى تأثير عنصري الجمال والأخلاق في توجيه الثقافة والحضارة والسبب يعود إلى تأثير عنصري الجمال والأخلاق في توجيه الثقافة والحضارة، والسبب يعود إلى الاختلاف في ترتيبهما في سلم القيم المتفق عليه في كل مجتمع. وهذا ما يوضح الأهمية التي يجب إعطاؤها لعناصر الثقافة وعلاقاتها في مركب الحضارة، وأن أي خلل في هذه العلاقات «فإنه قد ينتهي في آخر المطاف إلى خلل في توازن الحضارة وفي كيانها»⁽³³⁾.

ولكن لو حاولنا إسقاط هذا الطرح الحضاري لمشكلة الثقافة على الواقع الإجتماعي خاصة واقع العالم الاسلامي، فإننا نستنتج أن مالك بن نبي يعتبر حل مشكلة هذا العالم أمر مستحيل مادام يحصر مشكلة الحضارة في نطاق العلم ويتجاهل ارتباطها بالسلوك ومن ثم بمشكلة الحضارة.

الهوامش:

- (1) - أنور الجندي - الفكر و الثقافة المعاصرة في شمال افريقيا - المكتبة المصرية : 1965. ص 64.
- (2) مالك بن نبي - وجهة العالم الإسلامي - ترجمة عبد الصابور شاهين - دار الفكر - دمشق - الطبعة 1986. ص 55.
- (3) مالك بن نبي - شروط النهضة - ترجمة : عمر كامل مسقاوي، و عبد الصابور شاهين - دار الفكر - دمشق - الطبعة الرابعة 1978 ص 50.
- (4) المصدر نفسه ص 97.
- (5) المصدر نفسه والصفحة.
- (6) المصدر نفسه ص 98.
- (7) مالك بن نبي - مشكلة الثقافة - ترجمة عبد الصابور شاهين - دار الفكر - بيروت - الطبعة الرابعة - 1984 ص 72.
- (8) المصدر نفسه ص 82.
- (9) المصدر نفسه والصفحة.
- (10) المصدر نفسه والصفحة.
- (11) المصدر نفسه ص 83.
- (12) مالك بن نبي - شروط النهضة ص 99.
- (13) المصدر نفسه والصفحة.
- (14) المصدر نفسه والصفحة.
- (15) المصدر نفسه - ص 100، 101.
- (16) المصدر نفسه ص 101.
- (17) مالك بن نبي - شروط النهضة - ص 50.
- (18) مالك بن نبي - مشكلة الثقافة ص 92 :
- (19) المصدر نفسه ص 93.
- (20) مالك بن نبي - تأملات - ترجمة عمر كامل مسقاوي - دار الفكر - دمشق - الطبعة الخامسة 1991 ص 147.
- (21) مالك بن نبي - مشكلة الثقافة - ص 93.
- (22) مالك بن نبي - حديث في البناء الجديد - ترجمة عمر كامل مسقاوي - المكتبة العربية للطباعة و النشر - بيروت - دون تاريخ - ص 12.
- (23) محمد عبد السلام الجفائي - مفاهيم أساسية في فكر مالك بن نبي - مجلة كلية الدعوة الإسلامية - ليبيا - العدد السابع 1990 ص 82.
- (24) مالك بن نبي - مشكلة الثقافة - ص 82.
- (25) مالك بن نبي - شروط النهضة - ص 107.
- (26) المصدر نفسه - ص 108.
- (27) المصدر نفسه والصفحة .
- (28) اسعد السحمراني - مالك بن نبي مفكر اصلاحي - دار النفائس - بيروت - الطبعة الثانية : 1986 ص 156.
- (29) مالك بن نبي - شروط النهضة - ص 108.
- (30) المصدر نفسه - ص 109.
- (31) المصدر نفسه ص 111.
- (32) المصدر نفسه والصفحة .
- (33) المصدر نفسه ص 112.